تاريخ الإرسال: 2014/03/17 - تاريخ القبول للنشر: 3014/04/30 تاريخ النشر: 2014/07/06

حملة الجنرال لادميرول على اولاد نايل

ماي 1849 _ 12جوان 1849م

اسبابها ونتائجها

أ. خميسي سعدي

جامعة المسيلة.

ان مقاومة اولاد نايل ومساهمتهم في المقاومات الوطنية لم ينل حقه من البحث والابراز وهذه المداخلة جاءت لتوضح احد الحملات العسكرية التي تعرض لها اولاد نايل في ظل الظروف الممهدة لثورة الزعاطشة 1849.

ان مساهمة مختلف فئات الشعب الجزائري في المجهود العام للمقاومة الوطنية للاستعمار كان متميزا بالاستمرارية والديمومة رغم لحظات الهزيمة فان الرفض المتواصل لوجود الاجنبي هو الذي دفع الكثير من مواصلة المقاومة رغم اختلاف الموازين ، وفي هذا الصدد فان مساهمة اولاد نايل في المقاومة كان مساهمة فعالة منذ ان وطئت اقدام المستعمر ارض الجزائر ، و في الفترة التي ضاقت بالامير عبد القادر الجزائري السبل خاصة بعد سقوط الزمالة 1843 وجد في منطقة اولاد نايل ورجالها خير معين .

لقد قام الجنرال بيجو القائد العام للجيش الفرنسي بتسيير الحملات العسكرية المختلفة التي تتبع و تلتقط اخبار الامير ، فتعرضت منطقة اولاد نايل الواسعة لضغط القوات الفرنسية والى مطاردتها وتحملها عبئ المغارم والضرائب ، ورغم ذلك فان استمرار روح المقاومة لدى اولاد نايل لم يخفت ، فتجدهم يرفضون اوامر الشيوخ المعينين من طرف الادارة الفرنسية ، ويبتعدون عن مجالات وجود القوات الفرنسية حتى لا يتعرضوا للمداهمات والعقوبات .

الاوضاع بمنطقة اولاد نايل

ان منطقة تواجد اولاد نايل شاسعة جدا بحيث تشمل اليوم العديد من الولايات الجزائرية التي يتمركزون فيها (المسيلة ، بسكرة ، الجلفة ، الاغواط ، غرداية ،وغيرها)، وسببوا متاعب جمة للادارة العثمانية بالجزائر انتهت احيانا بمقتل بایاتالتيطري، ولذلك لجأت الادارة العثمانية الى تقسيمهم الى قسمين : اولاد نايل الشراقة واولاد نايل غرابة ، على النحو التالي :

اولاد خالد ، اولاد عمارة ، اولاد حمة ،اولاد رابح ، اولاد ساسي ، اولاد حركات ، اولاد ام الخوة ، اولاد زعير، اولاد صالح ، اولاد طعبة ، اولاد عيسى ،اولاد فرج، اولاد العيفة ،اولاد سيدي زيان ، اولاد لعور، اولاد احمد ، اولاد عامر وهم يتبعون بايلك قسنطينة خلال الفترة العثمانية و الامير عبد القادر جعلهم تحت سلطة خليفته على بسكرة[1] .

اما اولاد نايل الغرابة فهم على النحو التالي :

اولاد يحي بن سالم ، اولاد سعد بن سالم ، اولاد سي امحمد، اولاد كرد الواد ، اولاد امجبر ، اولاد امحمد بن امبارك ، اولاد لغويني بن سالم ، فهم يتبعون بايلك التيطري والامير كذلك جعلهم تحت سلطة خليفته في المدية[2] .

ثم قام الامير بتنظيم اولاد نايل سنة 1936 وقسمهم الى 06 فرق جعل على كل واحدة منها شيخ و هؤلاء الشيوخ جعلهم تحت سلطة سي عبد السلام بن القندوز من فرقة اولاد لغويني ، ومن بينهم فرق اولاد نايل النازلين غرب بوسعادة في اتجاه الجلفة[3].

تتبعت مختلف الطوابير العسكرية الفرنسية الامير وكاد الجنرال يوسف الايقاع به على بعد مراحل من بوسعادة حيث كان يقيم معسكره ، فأمر بقتل الاسيرين ليفيو لاكوتlacotte et levy هذا الاخير قبل أن يلفظ انفاسه اخبر الفرنسيين بأن سكان بوسعادة نادوا الامير ودعوه الى القدوم اليهم وقدموا له المساعدات المختلفة خاصة فرقة اولاد عتيق[4] .

و في نفس السياق المتمثل في مطاردة الامير عبد القادر ومعاقبة القبائل التي قدمت مساعدات له واظهار قوة فرنسا للقبائل حتى تتوقف عن ذلك ، ففي شهر جانفي 1846 وفد الكولونيل دي مونتيل القائد بالنيابة لمقاطعة سطيف من ونوغة على رأس جيش عسكر به وسط مضارب عرش اولاد فرج في المنطقة المسماة حاسي الذبان ومنها انطلقوا نحوعروش اولاد عامر و عين الريش و وادي الشعير وأولاد فرج وعين النخلة، لتأديب و معاقبة كل القبائل التي اعلنت خضوعها للأمير و أرسلت خيولا له أو قدمت له مساعدة بأي شكل من الاشكال عادت لتعلن ولائها وطاعتها للفرنسيين ثم عادت الى مدينة سطيف مارة ببوسعادة[5] .

وفي شهر افريل سنة 1846 قام الجنرال اربوفيلArbouville بدخول بوسعادة في طريقه الى مطاردة اولاد نايل النازلين جنوب بوسعادة الذين اعلنوا ولائهم للامير بمجرد ظهوره وسطهم ، وامتدت هذه الحملة الى غاية مطاردة عرش ام الاخوة الذين رفضوا الالتزام بدفع الضرائب[6] .

التعريف بالجنرال لادميرول

يعد الجنرال لادميرولت Louis-René-Paulde Ladmirault من أشجع واذكى الضباط الفرنسيين الذين عملوا بالجزائر ما يقارب 20 سنة. ولد بفيينا 1808 ، التحق بمدرسة سان سير العسكرية وتخرج منها سنة 1829 ، التحق بالجيش الفرنسي بالجزائر سنة 1831 ، تقلد مسوؤليات عديدة ورتب عسكرية متتالية ، وهو من ألمع الضباط الصغار الذين أثبتوا جدارة وتفوقا في المهام التي اسندت اليه سواء كانت عسكرية او مدنية ، ان عين جنرالا سنة 1848 قائدا للدائرة العسكرية للمدية . شارك في معارك عديدة أهمها :الاستيلاء على قسنطينة اكتوبر 1837 ،معركة موزاية 1840،مطاردة الامير عبد القادر في سنوات الاربعينيات من القرن 19 ، المشاركة في الهجوم على منطقة القبائل سنة 1847 ، سجله حافل بالاحداث العسكرية ، والمدنية ، و المهام السياسية ، توفي سنة 1898 بفرنسا .

اسباب الحملة

عرفت منطقة اولاد نايل عدة حملات عسكرية بحثا عن الامير عبد القادر وقواته ، الذين اتخذوا من المنطقة سندا لحركتهم المقاومة ، ولا يخفى على احد ان الامير وجدت كل الدعم والمناصرة من قبل افراد اولاد نايل ، وبهذا الصدد اطلق الضباط الفرنسيون على الفترة التي أعقبت سنة 1845 على محاولة الاميرعبد القادر اعادة تشكيل قواته و تنظيم اركان دولته وتنقله في المنطقة(مرحلة طرد الامير عبد القادر من الجنوب ومن عند اولاد نايل) .

ولما انتهت مقاومة الامير وانتقاض عرى دولته دخلت المنطقة في مرحلة من عدم الاستقرار والانتفاضات المتتالية ، رافضين كل خضوع للقوات الفرنسية واعوانها الذين عينتهم كقياد و مشايخ يتولون جمع الضرائب ومراقبة تحركات الاعراش ورجال الطرق الدينية لا سيما اتباع الطريقة الدرقاوية، فكلما سمعوا بخروج القوات الفرنسية غيروا مضاربهم الى مختلف الجهات و لاسيما الجنوب منه .

وتشير بعض الوثائق الارشيفية التي استدل بها الباحث الجزائري بن يوسف تلمساني في رسالة الدكتوراه حول التوسع الفرنسي في الفصل المخصص للتوسع في المناطق الوسطى والسهبية الى قلق السلطات الفرنسية من النشاط المعادي لوجودها وانتشار الدعاية حول قوة شيوخ القبائل والمرابطين ، وممارسة اتباع موسى الدرقاوي مهمة جمع الزكاة وفرض الضرائب على قبائل اولاد نايل واولاد مختار ، بالاضافة الى ضعف سلطة الشيوخ الموالين لفرنسا .

معركة المطاريح

هي أحد المواجهات غير المعروفة التي تندرج ضمن المقاومة الشعبية للاستعمار في منطقة اولاد نايل ، ولا يتم التطرق اليها الا كحدث محلي عابر لا علاقة له بالتفاعلات الناتجة عن حركة المقاومة المنتشرة في كل مكان حتى تقزمها وتنفي عنها كل بعد وطني ، الا ان الامر خلاف ذلك تماما حتى وان صورتها الكتابات الفرنسية على انها وقعت بسبب التهرب من دفع الضرائب بفعل تحريض انصار الامير عبد القادر وأعوانه سابقا في المنطقة .

المطاريح موقع جبلي حصين يقع حاليا ضمن اقليم بلدية ولتام ويبعد حوالي 7 كلم عن قرية العليق مقر البلدية و عن بوسعادة مقر الدائرة بـ 25 كلم ، وهو عبارة عن منخفض تحيط به الجبال من جهة ، يحد المطاريح من الجهة الجنوبية جبل البالة و جبل الفرنيني و من الجهة الغربية جبال بوسعادة ومن الجهة الشمالية جبل بولمعة و من الجهة الشرقية قرية العليق[7] .

أسباب المعركة

اعتقد الفرنسيون ان استسلام الامير عبد القادر لهم سينهي ولا شك المقاومة لدى الجزائريين لكن ظنهم خاب فلقد تحولت كل القبائل الى ثائرة ومتمردة بالنسبة للفرنسيين واصلت المقاومة بطريقتها الخاصة والمتمثلة في الامتناع عن دفع الضرائب و الزكاة و رفضت التعاون والاستجابة للاعوان الذين قامت بتعيينهم من طرف فرنسا بعد ازاحة اعوان الامير عبد القادر[8] .

انتشار الانباء والاخبار عن فرار الامير عبد القادر من أسره وعودته مجددا لحمل راية الجهاد وقرب ظهور شريف يأتي من الغرب أو سلطان يخرج من السوس على رأس جيش عظيم ليطرد الفرنسين .

نشاط اعوان الامير عبد القادر و انصاره في المنطقة الذين قاموا بتحريض الناس وتشجيعهم على عدم التعامل مع اعوان الاستعمار الفرنسي في المنطقة او دفع الضرائب والزكاة ، ومن بين هولاء الاعوان القائد سيدي احمد بن البكاي الذي استطاع بنشاطه اقناع رجال العرش الذي ينتمي اليه الا وهو اولاد عمر فرج بالاستجابة الى افكاره المعادية للفرنسين والانخراط في نشاطه[9] .

قامت الادارة الفرنسية بتجنيد حملة عسكرية كبيرة ادت في النهاية الى معركة المطاريح تهدف الى تدعيم الجيوش العسكرية العاملة في المنطقة الممتدة بين جنوب المدية والاغواط و بوسعادة لفرض السلطة الاستعمارية و تعزيز مكانة الباشاغوات و القياد و القبائل الموالية للفرنسين ومساعدتهم في تحصيل الضرائب و الغرامات المفروضة والزكاة. ومن جهة اخرى وضع حد لنشاط اتباع الطرق الصوفية و حرمان اتباعها من مصادرها الاقتصادية ، الذين « نشروا افكارهم المعادية لنا ، يبالغون في وصف قوة شيوخهم و ضعف جيوشنا[10] ».

ويرى بعض الكتاب الفرنسيين ان من بين الاسباب التي ادت الى حدوث هذه المعركة هي ضرورة العمل على اظهار قوة سلاحنا في هذه المناطق البعيدة وادخال فكرة قوتنا لسكان يتجاهلون قوتنا ، ثائرون على الدوام ، يعتقدون أنهم بعيدون عن سلطتنا أو تطالهم أيدينا . واعتبروا عدم دفع الضرائب غطرسة لا ينبغي أن تمر دون عقاب[11] .

انتشار الثورة في المنطقة ، ففي منطقة الحضنة الشرقية تمرد اولاد دراج واولاد سحنون وفي بسكرة ثارت واحة الزعاطشة وفي منطقة العمور واولاد نايل نشاط واسع لانصار الطريقة الدرقاوية وامتدت الثورة الى محيط بوسعادة حيث وصلت الى عين الريش ،لمليلحة، أولاد سعد ، السويقات ، أولاد بلقاسم ،عين الملح ، عين أغراب،أولاد جابر ،أولاد مردف وباقي المنطقة[12] .

وقد تزعم الثورة أحد الزعماء المحليين من عرش اولاد عمر فرج المسمى احمد بن البكاي من فرقة البكاكية القاطنة بجبل امساعد جنوب بوسعادة بحوالي كلم . ومما يستفاد من الروايات المتواترة انه كان أحد اعوان الامير في المنطقة وله علاقات واتصالات مع بعض زعماء المقاومة مثل الشيخ الصادق بلحاج شيخ الزاوية الرحمانية ببرج بن عزوز ، و مع الشيخ بوزيان شيخ واحة الزعاطشة ، وكذلك موسى الدرقاوي لما كان متجها الى واحة الزعاطشة مر بهم واقام عندهم مع عدد من فرسانه[13] .

سير المعركة:

انطلقت القوات الفرنسية من المدية في 09 ماي 1849 تحت قيادة الجنرال لادميرولت (*LADMIRAULT*) يساعده الكولونيل ديكومبراي (*DCOMBRAY*) على رأس المشاة والكولونيل ديرنجي (*DURRINGER*) لقيادة الفرسان و النقيب قابريو (*GABORIAUD*) رئيس المكتب العربي بالمدية لقيادة وحدات القوم المختلفة وعدد معتبر من قوم اولاد مختار و اولاد نايل الغرابة بقيادة الاغا بن يحي بن عيسى بالاضافة الى فصيلة من مدفعية الميدان و مختلف المصالح التي ترافق الجيش في تحركاته مثل المصالح الادارية والطبية والتموين[14] .

الجيش الفرنسي تفقد الزاغر وقام باخضاع قبائله وحصل الضرائب وثبت سلطة اعوانه ونفس العملية قام بتكرارها في المناطق التي جابها ومنها بوغار ، طاقين ، قلتة السطل ، الجلفة ، دمدومسعد ، فيض البطمة ، مليليحة ومنها الى عين الريش[15] .

أقام الجنرال معسكره بعين الريش وكلف فرقا من قناصة افريقيا والسبايس والقوم بالسير ليلا لمباغتة القبائل الثائرة والممتنعة عن دفع الضريبة التي من بينها قبيلة اولاد محمد لمبارك النازلة غير بعيد من معسكره بالقرب من جبل بوكحيل , فلما وصلت الطلائع الاولى لهذه الفرق المغيرة فروا نحو الجبل وتحصنوا به تاركين ورائهم اغنامهم وابقارهم وخيولهم وجمالهم غنيمة كبيرة للفرنسين دون ان يطلقوا رصاصة واحدة[16] .

بعد أيام قضاها الجنرال لادميرولت (*LADMIRAULT*) بعين الريش حيث استرجع الجيش راحته وقام بترتيب شؤون تلك الناحية ، انتقل الجنرال بعدها الى اراضي اولاد فرج بداية بقرية عين الملح التي وصل اليها يوم 08 جوان 1849 ، ومنها انطلقت وحدات عسكرية باتجاه قبيلتي اولاد سيدي زيان و اولاد خالد لتأديبهم و معاقبتهم على رفضهم دفع الضرائب[17] .

يوم 11 جوان 1849 تقدم الجيش الفرنسي نحو درمل وهناك تلقى التقارير المؤكدة على تمرد اولاد عمر فرج ورفضهم دفع الضرائب والغرائم المفروضة عليهم وانهم غادروا مضاربهم المعتادة وتحصنوا بالجبال . أمر الجنرال في ليلة نفس اليوم الذي وصل فيه الى درمل بتسيير فرقتين عسكريتين في هدوء تام ودون احداث للفوضى و الضجيج ، في اتجاهين مختلفين من اجل محاصرة الثوار وجعلهم بين فكي كماشة[18] .

سار سلاح المشاة تحت قيادة الكولونيلديكومبراي(*DCOMBRAY*) انطلاقا من القرارة القبلية ، ثنية السراة ، مهاجرة ، دخلة السعدان ، سهيل ، دخلة الذبان . أما عن سلاح الخيالة فقد كان بقيادة الكولونيل ديرنجي(*DURRINGER*) مرفوقا بوحدات من قوم اولاد علان واولاد نايل ، فانطلق من رميمنة ، عين اغراب ، مسعد ، تونال ، ثنية السوق ، هذه الاخيرة وصلوا اليها في حدود الساعة الخامسة صباحا ومنها الى المطاريح ، حيث أبصروا رجال اولاد عمر فرج يغادرون المكان نحو جبل الفرنيني بأملاكهم ومواشيهم بعدما بلغتهم انباء عن مهاجمتهم[19] .

تموقع رجال قبيلة اولاد عمر فرج وراء الصخور والاشجار بأسلحة بسيطة وتقليدية (بنادق ،سيوف) على مسافة تقدر بـ 2 كلم ، والقوات الفرنسية المدججة بأحدث الاسلحة تتقدم ببطء وبالرغم من عدم تكافؤ القوى فإن المقاومين واجهوا تقدم القوات الفرنسية ببسالة و شجاعة . حتى تم التحام الفريقين وبعد ساعة من النزال غير المتكافئ انسحب رجال اولاد عمر بن فرج باتجاه السفوح الشمالية الغربية لجبل بولمعة[20] .

خلف المنسحبون ورائهم 27 قتيلا واسر عدد كبير من النساء و الاطفال وتم الاستيلاء على 2000 رأس غنم مقتل النقيب قابريو(*GABORIAUD*) الذي أصبح موقع قتله يعرف اليوم بضلعة القبطان ، واصابة النقيب فوندوفرو بجروح بليغة بالاضافة الى اصابة 6 جنود اخرين بجروح[21] .

بعد انتهاء المعركة تجمع الجيش الفرنسي بقرية العليق حيث أعاد تنظيم صفوفه واستقبل الجنرال لادميرولت (*LADMIRAULT*) خضوع واستسلام قبيلة أولاد عمر بن فرج عند مروره بأراضيهم في طريق العودة الى المدية حيث غرمهم بـ 10.000 ف . انتقل الجيش الفرنسي الى درمل يوم 13 جوان 1849 ومنه الى عين سلطان في أراضي قبيلة اولاد عامر يوم 14 جوان 1849 ومنها قفل راجعا الى المدية[22] .

دامت هذه الحملة 41 يوما ووصفت بالناجحة والايجابية بفعل العمليات التأديبية ، بل قل القمعية التي مورست على سكان الجنوب ، و تجريدهم من مصادر العيش بنهب حقولهم ، لا سيما و ان هذه الحملة تزامنت وموسم جني المحاصيل الزراعية[23] .

هذا العقاب القاسي لاولاد عمر بن فرج كانت له نتائج مباشرة تتمثل في الخضوع الظاهري للقوات الفرنسية ولأعوانها و نتائج غير مباشرة ظهرت فيما بعد في تأليب وتحريض سكان المنطقة و مشاركتهم في ثورة الزعاطشة أو الانضمام الى حركة الشريف سي موسى الدرقاوي أو الانخراط في حركة الشريف محمد بن شبيرة.

الهوامش والإحالات:

1- Daumas ,op.cit p 160,162.

2- ibid, p 160,162.

3- - Arnaud : Histoire des Ouled Nail, Revue Africaine , N°17 Année 1873, p. 311.

4- Youssef nassib : op.cit .p173.

5- CAOM:8H7,notice historiques et géographiques sur boosaada,m'sila, bordj bouareridj.

6- Ibid

7- مصطفى طيبي : القائد سيدي أحمد بن البكاي و ثورته المنسية ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، عين امليلة ، الجزائر ، 2005، ص 34 .

8- Gramant (D): combat de metarih, in revue Africain N ° 29 Année 1885

9- مصطفى طيبي : المرجع السابق ، ص 30 . و انظر كذلك :

1- op.cit , p,152. -

10- ابن يوسف تلمساني : التوسع الفرنسي في الجزائر 1830 – 1870 ، اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر(2004-2005) ، رسالة غير منشورة ، ص 316 .

11- op.cit , p,152

12- كمال بيرم : المرجع السابق ، ص 28 ، وانظر أيضا :

- بن يوسف تلمساني : المرجع السابق ، ص 316 .

13- مصطفى طيبي : المرجع السابق ، ص ص 23 ، 30 .

14- OP.CIT,p 152.

15- op.cit, p, 152,154

16- op.cit, p, 152,154.

17- بن يوسف تلمساني : المرجع السابق ، ص 321 .

18-- op.cit, p, 155.

19- op.cit, p, 156.

20- - op.cit, p, 156.

21- بن يوسف تلمساني : المرجع السابق ، ص 323 . وانظر ايضا :

— op.cit, p, 157.

22- op.cit, p, 157.

23- بن يوسف تلمساني : المرجع السابق ، ص 322، 323 .

24- مصطفى طيبي : المرجع السابق ، ص 46 .